من أجل الكرامة الإنسانية .. والإنسان

الأستاذ عصام العطار

لا أكتب هذه السطور من أجل الذين عُذِّبوا في سجون العراق ومعتقلات العراق ، واستبيحت كرامتُهم وحُرُماتُهم وإنسانيّتُهم وحياتُهم في سجون العراق ومعتقلات العراق وبيوت العراق وشوارع العراق ..

لا أكتب هذه السطور من أجل هؤلاء فقط ؛ ولكنْ أكتبُها من أجل كلّ إنسان يُعَذّب ، أو شعب يعذّب ، أو بلد تُنتهك حريتُه وحُرمتُه وسِيادته وأمنه وقِيَمُهُ ..

وأكتبُها من أجل الكرامة الإنسانية التي أرادها خالق الإنسان للإنسان :

- ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ... ﴾ [الإسراء : ٧٠]

فقد قرّر اللهُ عزَّ وجلَّ الكرامة للإنسان من حيث هو إنسان ، على امتداد الزمان والمكان ، بصرف النظر عن دينه وقومه ووطنه ؛ فإذا رأيتَ من ينتهك الكرامة الإنسانية والحرمات الإنسانية ، ورأيتَ من يتفرّجون ولا يتحرّكون ولا ينطقون ، فيا هَوانَ الإنسانية والإنسان ، ويا ويلَ الإنسانية والإنسان من حاضر آثم ، ومستقبل مظلم ، في زمن تزداد فيه خطورة الطغيانَ والعدوان ، وقدرةُ الدول والجماعات والأفراد على الخير والشرّ ، والعمار والدّمار

إن القبول بانتهاك الكرامة الإنسانية في بلد واحد ، أو شخص واحد ، هو من حيث المبدأ قبول بانتهاك الكرامة الإنسانية في العالم كلّه ؛ فيجب بالتالي أن يقف البشرُ جميعاً ، لمصلحة البشر جميعاً ، بعضُهم مع بعض في الدفاع عن

الكرامة الإنسانية المهدرة ، والحرمات الإنسانية المنتهكة ؛ فلا قيمة للعالم وللحياة إذا أهدَرت كرامة الإنسان ، وانتهكت حرمات الإنسان



وفي أرض الرافدين ، أرض التاريخ العريق والحضارات الباهرات ، تُنْتَهك الآن تحت سمع العالم وبصره كرامةُ الإنسان وحُرُماتُ الإنسان وحياةُ الإنسان ، كما انتهكت حريةُ البلاد وسيادتُها ، وتراثُها وثقافتُها ، وبنيتُها وثروتها .. أبشع انتهاك

إنّ ما وقع في سجن « أبو غريب » ، وفي سجون العراق ومعتقلاته .. شيءٌ تقشعرُّ لهوله وبشاعته الأبدان ، وتَخْزَى به الدولُ والشعوب ، ويَنْدَى له جبينُ الإنَسانية والإنسان

وتتكشّف حقائقُ جديدة كلَّ يوم ، وتزداد الدلالات ، على أنّ ما وقع – وما يزال يقع بحدٍّ من الحدود وشكلٍ من الأشكال – ليس عملَ أفراد قلّوا أو كثروا ، ولكنه ثقافة وسياسة ، ومنهج ونظام ، وممارسات متماثلة أو متقاربة ، تمتدُّ من غوانتاناموا إلى العراق ، ومن كابل إلى بغداد ، وتصل أعلى الهرم بأسفل الهرم ، وأسفلَ الهرم بأعلاه ..

وهناك أيضاً جَوٌّ فكريّ ونفسيّ وسياسيّ وقانونيّ ، يشجّع أصحاب النفوس المريضة من الجنود والقادة ورجال الاستخبارات ، على انتهاك حقوق الإنسان دون خشية من العواقب ، وارتكاب أقبح الجرائم في معاملة المعتقلين والمسجونين والمستجوبين وسائر الناس

الولايات المتحدة الأمريكية تضع نفسها فوق القوانين والاتفاقات والمؤسسات الإنسانية والدولية ، فالمعتقلون في غوانتانامو وفي أماكن سرية أخرى كما نسمع ، محرومون من أيّ حقّ من الحقوق القانونية والإنسانية المقررة دوليّا للأسرى والمعتقلين ؛ ومن هؤلاء البؤساء من اعتقلوا بلا سبب ، ومن اعتقلوا لمجرد الشبهة ، ومن اعتقلوا لغير الأسباب المعلنة ، وهم لا يحاكمون على ذنوبهم

المزعومة ، ولا يطلق سراحهم إن لم يكونوا مذنبين ..

وقد شَرَّعت الولايات المتحدة لنفسها ، في غوانتانامو وغيرها ، ألواناً من التعذيب الجسديّ والنفسيّ يُحَرّمها القانون الدولي ، وتُحَرّمها اتفاقات جنيف

وعارضت الولايات المتحدة باستمرار وإصرار معاهدة الجزاء الدولية ، ورفضت توقيعها ، وهي المعاهدة التي تعطي محكمة الجزاء الدولية الحقّ في محاكمة من يرتكبون جرائم حرب في أيّ أرض كانوا ، ومن أيّ دولة جاءوا

وسعت الولايات المتحدة إلى عقد اتفاقات ثنائية مع دول كثيرة تُعفي جنودها ورجالها من المساءلة أمامها ، عما يرتكبونه فيها ، وتمنع تسليمهم إلى أيّ جهة دولية مختصة لمحاكمتهم أو معاقبتهم

كلّ هذا شجع جنود الولايات المتحدة وعناصرها الاستخبارية على كثير من تجاوز الحدود دون مبالاة

فإذا أضفتَ إلى ذلك كلّه روحَ الغرور والصلَف والاستكبار في القطب الأوحد ، والقوّة الأعظم ، والصورة الكريهةَ الحقيرةَ المزرية التي يُصَوَّرُ بها من تَعُدُّهم الولايات المتحدة أعداءها وخصومتها .. وإذا أضفتَ أيضاً تشجيع بعض القيادات السياسية والعسكرية – كما هو الشأنُ في غوانتانامو وأفغانستان والعراق – على كسر معنويات المقاومين والمستجوَبين ، وتحطيمهم وإذلالهم ، ودفعهم إلى الخضوع المهين ، والاستسلام الكامل ، لكلّ ما يُملَى عليهم ، أو يُطلب منهم ، من حق أو باطل ، وصدق أو كذب .. لم يُستَغْرَب ما حصل في سجن « أبو غريب » وسواه من التعذيب والتنكيل وسائر المنكرات

ومن الحقائق الأليمة أن القيادات العسكرية والسياسية الأمريكية العليا كانت على معرفة بهذه الجرائم الفظيعة الدنيئة ، إن لم يكن بعض هذه القيادات وراءَ هذه الجرائم ؛ ولكنهم لم ينبسوا ببنت شفة ، ولم يتخذوا أيّ إجراء جادٍّ حازم لوقفتها ، ومعاقبة مرتكبيها ، قبل أن تتسرّب تلك الصور إلى بعض وسائل الإعلام ، وتنتشر من بَعْدُ في أنحاء الدنيا ، ويكون لنشرها هذا الصدَى المدوّي

لقد كان حرصهم على سمعتهم وسمعة الولايات المتحدة ، وصورتهم وصورتها في العالم ، أعظم كثيراً كثيراً من حرصهم على الحق والعدالة ، والإنسان وكرامة الإنسان !!

إنّ صُوَرَ التعذيب اللا إنسانية واللا أخلاقية ، المذهلة ، وأخبارَه المزلزلة ، تضع الولايات المتحدة ، والغرب ، والحضارة الإنسانية كلّها في مأزق

لقد غزت الولايات المتحدة العراق ، ودمرته ، واحتلته ، ونكّلت بمن قاومها فيه أشدّ تنكيل .. بدعوى امتلاكه أسلحة دمار شامل ، وتهديده المؤكّد الماثل لأمن الولايات المتحدة وأمن العالَم ، ودعوى تعاونه مع « القاعدة » .. وتبين بعد ذلك لكل الناس بشكل واضح قاطع أنّها – أو أنّ إدارتها على الأصح – كانت كاذبة في الأمرين :

١-لم يكن العراق يملك أسلحة دمار شامل ، ولا يشكلّ أيّ تهديد لها ولا لغيرها على المدى القريب أو المدى البعيد

٢-لم يقم أيُّ دليل على صلة بين صدام حسين والقاعدة

وكان على الولايات المتحدة أن تجد ورقة توت تواري بها سوأتها ، وتستر بها خداعها وكذبها ، وأن تقدّم مبرّراً آخر لغزوها واحتلالها العراق بعد سقوط المبرّرين السابقين ، فأصبحت تعلن وتؤكّد بمثالية وفخر أنّها جاءت لتحرير العراق والعراقيين ، وبناء عراق جديد على أساس من الديمقراطية والشفافيّة واحترام حقوق الإنسان

وتتفجّر فضائح « أبو غريب » وسواه من السجون والمعتقلات ، وينكشف النّتَن المستور عن العيون ، ويرى الناس من خلال « أبو غريب » وأشباهه ، وما قاساه العراقيون فيه من الأهوال والتعذيب والإذلال .. حقيقةَ الشعارات الأمريكية التي يكذبها الواقع المشاهد الملموس ، ويصرخ بأنها شعارات زائفة خادعة ليس لها أي رصيد

أين الديمقراطية ؟!

أين الشفافية ؟!

أين حقوق الإنسان ؟!

ليس هناك إلا حاكم بأمره واحد : بريمر ، وحكام بأمرهم عسكريون ، مراجعهم جميعاً خارجَ الحدود ، وليس لأحد من العراقيين أهل البلاد رأي ولا قيمة حقيقية ولا معرفة عميقة ولا تأثير فيما يجري من الأمور

الخشيةُ أن يكفر الناس بالغرب كلّه من خلال كفرهم بالولايات المتحدة وشعاراتها الزائفة وما تصنعه في العراق وفلسطين ، وما تصنعه معها بريطانيا

وأن يكفر بعض الناس بالحضارة الإنسانية كلها إذ يرونها من خلال ما ينزل بهم على أيدي الأمريكان والإنجليز ، وفي ذلك خطر بالغ ، وخسارة بالغة ، وضرر كبير بالعراقيين والعرب والمسلمين والحضارة والإنسان

ولا بدّ لنا ، وللعالم معنا ، قبل كلّ ما تَقَدّم وبعدَه ، ألاّ تشغلنا أخبار التعذيب وصوره الأليمة الفاجعة ، بكلّ صدمتها وهولها ، وانحطاطها وخستها ، عن أصل الداء والبلاء ، ومصدر الكوارث والشقاء : الاحتلال

إن مصائب الشعب العراقي وآلامه ومعاناته المروّعة على كلّ صعيد إنما هي بالدرجة الأولى أثر من آثار الاحتلال الوحشي الظالم الآثم

فالمسؤولُ الأولُ الأكبر عن ذلك كله ، والمجرمُ الأولُ الأكبر في ذلك كلّه : إنما هو الاحتلال

وما فضائح السجون العراقية ومآسيها ومخازيها إلاّ جزءٌ من كلّ ، وفرعٌ من أصل ، مما يُسَبّبه الاحتلالُ ويَجنيه الاحتلال

ولذلك وجب علينا أن نتوجه بكلّ اهتمامنا ووعينا وقوتنا إلى أصل المشكلة لا إلى فروعها وآثارها فقط ، على خطورة هذه الفروع والآثار

يجب أن يتكاتف العرب والمسلمون وأحرار العالم كلّه لإنهاء الاحتلال ، ومساعدة العراق المدمّر الجريح على التحرّر والتَّوَحُّد والبناء وتضميد الجراح ، وإقامة دولته الجديدة على أساس من الحرية والشورى والعدل ، وأداءِ دوره المحليّ والعربَيّ والإسلاميّ والعالميّ بما يحقّق له وللعالم الأمن والسلام والتقدمَ والخير



وليس يفوتني قبل أن أضع من يدي القلم أن أذكر بالتقدير والعرفان الصحف والمجلات الأمريكية والغربية والعالمية التي فضحت جرائم « أبو غريب » وسائر المعتقلات والسجون ، وشجبت بقوة هذه الجرائم ، وندّدت بمن يقفون وراءها ؛ وأن أذكر بالتقدير والعرفان الأحرار الشجعان من الرجال والنساء في الولايات المتحدة والغرب وسائر أنحاء العالم الذين وقفوا مع الحق والعدل والإنسان وقيمه العليا من فوق كل عصبية وطنية أو قومية ، وكل خشية أو مجاملة أو مصلحة ذاتية

إن هذه المواقف وأمثالها تردُّ للإنسان بعض ثقته بالإنسان ، واحترامه للإنسان ، وحبه للإنسان ، وتضيء في ظلمات الواقع ومظالمه ومخاوفه شعلةً للأمل في مستقبل أفضل

ولا أذكر هنا حكام العرب ، وسكوتهم العجيب المعيب ، عن إدانة جرائم القتل والتعذيب والاعتقال الظالم وانتهاك كرامة الإنسان وحرماته في سجن أبو غريب وغيره من السجون ، فأنا أعرف أنهم لا يستطيعون الكلام ولو تكلّمت في ذلك الدنيا ، ولا يجرؤون على أيّ نقد واستنكار ولو فعل ذلك أهل الأرض ؛ لأن بيوتهم وقصورهم من زجاج ، و « من كان بيته من زجاج لا يرمي غيره بالحجارة »

ولو ذاع المعروف ، وكشف المستور ، عما في سجون بعضهم من المظالم والمآسي والقتل والعذاب ، لكان لهم قَصَبُ السَّبْق في كل جريمة من الجرائم ، أو حُشِروا مع رامسفيلد وعصابته في قَرَنٍ [1] واحد !!

---

(١) القَرَن : الحبْل يُقرن به البعيران